خوان رولفو (المكسيك)

ألا تسمع نباح الكلاب ؟

ـــ أنت الذي هناك فوق يا إغناثيو، قلّ لي اذا كنت تسمع علامة ما لشيء أو ترى ضوءا ما في مكان ما.

ـــ لا أرى شيئا.

ـــ قربنا الآن بلا شك

ـــ نعم، ولكن أنا لا أسمع شيئا.

ـــ انظر جيدا.

ـــ لا أرى شيئا.

ـــ يا لتعاستك يا إغناثيو !

واصل الظل الاسود للرجلين تحركه من الاعلى الى الاسفل، متسلقا الاحجار، متضائلا ناميا في تقدمه وضفة الجدول. كان ظلا وحيدا، متمايلا.

كان القمر خارجا من الأرض كقطعة لهب مستديرة.

ـــ نحن الآن قربنا بلا شك من تلك القرية يا إغناثيو، أنت الذي لا يغطي شيء أذنيك، حاول أن تسمع هل الكلاب تنبح أم لا. تذكر أنهم قالوا لنا «طونايا» وراء الجبل، ونحن تركنا الجبل وراءنا قبل ساعات. تذكر يا إغناثيو.

ـــ نعم، ولكن لا أرى علامة لشيء.

ـــ بدأت أتعب

ـــ نزلني

أخذ العجوز يتقهقر حتى مس الجدار المتهدم، وهناك أصلح وضع الحمل على كتفيه دون أن يطلقه. لم يكن يريد الجلوس، مع أن رجليه كانتا تنثنيان، لأنه بعد ذلك لن يستطيع أن يرفع جسم ابنه الذي ساعدوه على ان يلقيه على ظهره قبل ساعات، هناك في المكان الذي تركاه وراءهما. وهكذا جاء به منذئذ.

ـــ كيف أنت ؟

ـــ مهلوك

لم يكن يتكلم كثيرا. كلامه كان يزداد قلة بعد كل لحظة. تارة كان يبدو أنه نائم. وتارة أنه برد. كان يترعد. هو كان يعرف متى تمسك الرعدة بولده من خلال الهزات التي

تصيبه بها ولأن قدميه كانتا تدخلان في جانبيه كمهماز. بعدئذ كانت يدا الابن اللتان تحيطان عنقه تحركان رأسه كما لو كان جلجلا.

هو كان يضغط اسنانه كي لا يعض لسانه، وعند انتهاء ذلك كان يسأله :

ـــ هل يؤلمك كثيرا ؟

فكان يجيب :

ـــ قليلا

في البداية قال له : «نزلني هنا... خلني هنا... اذهب أنت وحدك. أنا الحق بك غدا أو لما أقوى قليلا». قال له هذا خمسين مرة تقريبا. الآن لم يعد يقول حتى هذا.

هناك كان القمر. قبالتهم. قمرا كبيرا أحمر يملأ بالضوء عيونهما ويمد ظلهما على الأرض ويزيد ظلامه.

كان هو يقول :

ـــ لا أرى الطريق الآن

لكن لم يكن يجيبه أحد.

الآخر كان هناك فوق، مضاء كله بالقمر، ووجهه الذي فقد الدم واللون يعكس ضوءا قاتما. وكان هو هنا تحت.

ـــ أسمعت يا إغناثيو ؟ قلت لك لا أرى جيدا.

والآخر كان يبقى ساكتا.

واصل المشي، وهو يعثر. كان يتقلص ثم ينتصب ليعود يعثر من جديد.

ـــ هذا ما هو طريق بتاتا. قالوا لنا طونايا وراء الجبل. والجبل بقي وراءنا وطونايا لا نراها، ولا نسمع أي صوت يقول لنا هي قريبة. لماذا لا تريد أن تقول لي إنك ترى، أنت الذي هناك فوق، يا إغناثيو ؟

ـــ نزلني يا أبي.

ـــ أتحس بآلام ؟

ـــ نعـــم.

ـــ سأذهب بك الى طونايا مهما كلفني الامر. هناك سأجد من يداويك. قالوا هناك طبيب. سآخذك اليه. جئت بك محمولا منذ ساعات ولن أتركك مرميا هنا ليقتلك أي كلب.

ترنح قليلا. خطى خطوتين جانبيتين أو ثلاثا وعاد الى الانتصاب.

ـــ سأذهب بك الى طونايا.

ـــ نزلني.

صوته صار خافتا، كان مهموسا فقط :

ـــ أريد أن أرقد قليلا.

ـــ ثم هناك فوق. أنا أقبضك الآن جيدا.

كان القمر يصعد أزرق تقريبا في سماء صافية. وجه العجوز الذي بله العرق امتلأ بالضوء. أغمض عينيه لكي لا ينظر أمامه، فهو لم يكن يستطيع ان يحني رأسه الممنوع من الحركة بين يدي ابنه.

ـــ كل هذا الذي أعمله، لا أعمله من أجلكم، أعمله من أجل المرحومة أمكم، لأنكم كنتم ابنها، لذلك أعمله. هي كانت ستُعَيِّرُني لو كنت تركتكم مرميين هنالك، حيث وجدتكم، ولو لم ألمكم لآخذكم إلا حيث يداوونكم، كما أعمل الآن. إنها هي التي تشجعني، لا أنتم، أولا لأنكم ما اعطيتموني غير مشاكل خالصة، عذاب خالص، عار خالص.

كان يعرق أثناء الكلام. لكن ريح الليل كانت تيبس عرقه. وعلى العرق اليابس كان يعود يعرق.

ـــ قد ينقصم ظهري، ولكن لابد أن أصل بكم الى طونايا، لكي يداووا تلك الجروح التي أصابوكم بها. أنا متأكد أنكم لما تحسون بالشفاء ستعودون الى خطواتكم المنحرفة. ذلك لا يهمني الآن. على أن تذهبوا بعيدا، حيث لن أعود الى سماع أخباركم، على أن تعملوا ذلك... لأنكم بالنسبة الي ما أنتم ابني الآن. أنا سخطت على دمي الذي يجري فيكم، المقدار الذي كان لي منه سخطت عليه، قلت : «ليعفن الدم الذي اعطيته أنا في كليتيه !» قلت هذا منذ أن عرفت أن أماكن حركتكم هي الطرقات، حيث تعيشون على السرقة وعلى قتل الناس... والناس الطيبين. والا، ها هو هناك صاحبي طرانكيليتو. الذي عمدكم أنتم. الذي سماكم. هو كذلك صادفة سوء الحظ بالتقائه بكم، منذئذ قلت : «هذا لا يمكن أن يكون ابني»

ـــ انظر لعلك ترى الآن شيئا، أو تسمع شيئا، أنت الذي تستطيع أن تعمل ذلك من هناك فوق، لأني أحس أنني أصم.

ـــ لا أرى شيئا.

ـــ هذا أسوأ لك يا إغناثيو.

ـــ أنا عطشان.

ـــ اصبر ! لابد أننا قربنا. ولكن الظلام شديد ولابد أنهم أطفأوا الضوء في القرية. لكن يجب على الاقل أن تسمع هل تنبح الكلاب. حاول أن تسمع.

ـــ أعطني الماء

ـــ هنا لا يوجد ماء. ما هنا غير الاحجار. اصبر. وحتى لو كان، لن أنزلك لتشرب ماء. لن يساعدني أحد على رفعك مرة أخرى، وأنا وحدي لا أقدر.

ـــ أنا عطشان جدا، وأريد أن أنام.

ـــ أتذكر لما ولدت. هكذا كنت في ذاك الوقت. كنت تفيق جوعان وتأكل لترجع الى النوم، وأمك كانت تعطيك الماء، لأنك كنت قضيت على حليبها، ماكان يكفيك شيء،

وكنت عنيفا جدا. ما فكرت قط أنك مع مرور الزمن سيطلع ذاك العنف الى رأسك... لكن هذا هو ما جري. أمك، الله يرحمها، كانت تريد أن تكبر قويا كانت تظن أنك لما تكبر ستكون عولها. ماكان عندها غيرك. الولد الآخر الذي كانت ستلده قتلها، وأنت كنت ستقتلها مرة أخرى لو كانت بقيت حية حتى هذا الوقت.

شعر أن ذاك الرجل الذي يحمله على كتفيه لم يعد يضغط ركبتيه وبدأ يرخي رجليه مأرجحا إياهما من جهة الى أخرى. وبدا له أن الرأس هناك فوق يهتز كما لو كان ينشج.

أحس أن نقطا كبيرة كأنها دموع تسقط على شعره.

ــ أتبكي يا إغناثيو ؟ ذكرى أمكم هي التي تجعلكم تبكون، أليس كذلك ؟ لكنكم ما عملتم قط أي شيء من أجلها، رددتم دائما جميلنا بالشر. كأننا عوض المحبة عمرنا جسمكم بالشر. وهل ترون ؟ الآن جرحوكم. ماذا جرى لاصحابكم ؟ قتلوهم كلهم، ولكن هم ما كان عندهم أهل. هم كان يمكن أن يقولوا : «ما عندنا أحد يتأسف علينا» وأنتم يا إغناثيو ؟

القرية كانت هناك الآن، رأى السقوف تلمع تحت ضوء القمر. غمره شعور بأن ثقل ابنه كان يسحقه لما أحس أن مأبضيه كانا ينثنيان في المجهود الاخير. لما وصل الى الدار الاولى، أتكأ على حظار الرصيف وأطلق الجسم الذي ارتخى كأنه فُكَّ.

حل بصعوبة الاصابع التي كان ابنه يمسك بها عنقه، ولما غدا متخلصا منه، سمع كيف أن الكلاب تنبح في كل مكان.

ــ وأنت لم تكن تسمعها يا إغناثيو ؟ ــ قال ــ ما ساعدتني حتى بهذا الأمل.

ترجمة محمد العشيري

ــ خوان رولفو، ولد في سايولا (المكسيك) عام 1918. لم ينشر سوى عملين أدبيين : «السهل يحترق» (قصص قصيرة 1953) و «بيدرو بارامو» (رواية 1955)، ومع ذلك فإن تأثيره على كثير من كبار أدباء أميركا اللاتينية لا ينكره أحد من هؤلاء الادباء.

عن كتاب :

- EL LLANO EN LLAMAS. JUAN RULFO. FONDO DE CULTURA ECONOMICA. MEXICO 1973.